السنة التاسعة والثمانون بعد المئتين

فيها فاض ماء البحر على السَّاحل فأخرب الحصون والبلادَ التي عليه، ولم يُعرف قبل ذلك.

وانتشرت القرامطةُ بسَواد الكوفة، وكان رئيسُهم رجل يقال له: ابنُ أبي الفوارس، فظَفرَ به عسكرُ المعتضد، فحُمِل وجماعةٌ معه إلى بغداد، فعُذِّبوا بأنواع العذاب، ثمَّ صُلبوا وأُحرقوا، وأمَّا ابن أبي الفوارس فقُلِعتْ أضراسُه، ثمَّ شُدَّ في إحدى يديه[1] بَكْرَة، وفي الأخرى صَخْرة، ورُفعت البكرة، فلم يزل على حاله إلى وقت الظهر، ثمَّ قُطعت يداه ورجلاه، وضُربت عُنقُه.

وفيها في ربيع الأول[2] أمر المعتضد ببناء قصر بناحية باب الشَّمَّاسيَّة، وأمر بإخراج مَن كانت له دار هناك أو حانوت، وقيل لهم: خذوا أنقاضَ دُوركم، وأخذ منهم العِراص، وابتدأ على دجلة ببناء دِكَّة ليُقيم بها المعتضد إلى أن يَفرغ من بناء القصر، ثمَّ اعتلَّ [المعتضد] في ربيع الآخر علَّةً صَعْبة، واشتدَّ وجعه، وأُرجف عليه، ثمَّ عوفي، فقال عبد الله بن المعتز:

طار قلبي بجَناحِ الوَجيبِ ... جَزَعاً من حادثاتِ الخُطوبِ
وحِذاراً أن يُشاكَ بسوءٍ ... أَسَدُ المُلْكِ وسيفُ الحروبِ
جال شيطانُ الأراجيفِ فينا ... بحَديثٍ مُفَتِّتٍ للقلوبِ
وكأنَّ النَّاسَ أغنامُ راعٍ ... غاب عنها أو أحسَّت بذيبِ
ثمَّ بدّت[3] نعمة الله بشرى ... كشفتْ عنَّا غطاءَ الكروبِ
وقعتْ منا مواقعَ ماءٍ ... في حَريقٍ مُشَعَّلٍ ذي لَهيبِ
ربِّ أَصْحِبْه سَلامةَ جِسمٍ ... واحْبُهُ منك بعُمْرٍ رَحيبِ

وفي ربيع الآخر توفِّي **المعتضد**، وولِّي الخلافةَ ابنُه **المكتفي بالله**.

---

(١) في (ف) و(م١): رجليه، والمثبت من (خ)، وهو الموافق لما في تاريخ الطبري ١٠/ ٨٦، والمنتظم ١٢/ ٤٢١.

(٢) في (خ): الآخر. والمثبت من (ف) و(م١).

(٣) في المنتظم ١٢/ ٤٢٢: هَبّت، والأبيات ليست في (ف م١).

الباب السابع عشر في خلافته[١]

هو أبو محمد عليُّ بن أحمد المعتضد بن أبي أحمد الموفَّق ابن جعفر المتوكّل، وليس في الخلفاء المتقدّمين مَنْ كنيته أبو محمد إلَّا الحسن بن علي رضوان الله عليهما، وموسى الهادي، والمكتفي، وفي المتأخرين أبو محمد المستضيء، وليس فيهم من اسمه عليٌّ إلَّا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه والمكتفي.

ولد في ربيع الآخر، وقيل: في رجب سنة أربع وستين ومئتين، وأمُّه أمُّ ولد تركية يقال لها خنجو[٢]، وقيل: ظَلوم، ولم تدرك خلافته، وكان أحسن الخلفاء صورة.

ذكر بيعته:

لمَّا اشتدَّ مرض المعتضد اجتمع القوَّاد والموالي والخدم في دار العامَّة وفيهم مؤنس الخادم، ومؤنس الخازن، ووصيف موشكير، والفضل بن راشد، ورشيق القاري، وغيرهم، وكان بدر بفارس، فقالوا للقاسم بن عبيد الله: خذِ البيعة، فقال: أمير المؤمنين حيٌّ، ولا آمَنُ إفاقتَه وقد أطلقتُ المال، فيُنكر عليَّ، فقالوا: إنْ منَّ الله تعالى على أمير المؤمنين بالعافية فنحن المحتجُّون والمناظرون دونَك، وإن صار الأمر إلى الأمير أبي محمد أُعزَّ بالله فمن المُحال أن يلومنا ونحن نطلب الأمر له، فقال القاسم: رأيكم.

وكان في عزمه أن يصرف الأمر إلى غير المكتفي، فلمَّا رآهم على هذا الرأي قال: افعلوا ما ترونه، فإنَّ الأموال والخلافةَ لأبي محمد بعد أمير المؤمنين، وقد أوصاني أمير المؤمنين بهذا.

فأُخذت البيعة بعد صلاة العصر من يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلةً بقيت من ربيع الآخر لأبي محمد علي، ولُقِّب المكتفي بالله، وأطلق مال البيعة للموالي وغيرهم، فأحضر القاسم أحمد بنَ محمد بن بسطام، وأولاد الخلفاء: عبدالله بن المعتزّ، وقُصيّ

---

(١) هذا الباب كاملاً ليس في (ف) و(م١).

(٢) في (خ): منجور. والمثبت من تاريخ بغداد ١٣/ ٢١٤، ونسخة في المنتظم ١٣/ ٤ كما في حاشيته.

ابن المؤيَّد، وعبد العزيز بن المعتمد، وعبد الله بن الموفَّق، فأُخذت عليهم البيعة، ووكّل بهم في دار مؤنس[١].

قال عبدالله بن المعتز: فسهرت ليلةً، وفكَّرت في نفسي وقلت: غداً يَقدُم المكتفي فيقتلنا، ولنا اتِّصال برسول الله ﷺ، فمرَّت بي وقتَ السَّحَر حَمامةٌ، فقلت: [من البسيط]

يا نفسُ صَبْراً لعلَّ الخيرَ عُقباكِ ... خانتْكِ من بعد طُولِ الأمْنِ دُنياكِ
مرَّت بنا سَحَراً طيرٌ فقلت [لها] ... طُوباكِ يا ليتني إيَّاك طوباكِ
لكنْ هو الدَّهرُ فالْقَيْه على حَذَرٍ ... فربَّ مِثلك تَنْزو بين أشْراكِ

فأحببتُ أن أكون مثلها مُخَلِّياً[٢].

وسأل المكتفي عنَّا، فأُخبر بحالنا، فأطلَقَنا في السَّحَر، وأعطى كلَّ واحد منَّا ألفَ دينار، وقيل: إنَّ القاسم الوزير أطلقهم، وردَّهم إلى منازلهم مُكرَّمين لما دخل المكتفي، وأنفذ القاسم الأمور.

وتوفِّي المعتضد ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر على خمس ساعات من الليل، وكان المكتفي بالرقَّة، فكتب إليه القاسم كتاباً في الحال يخبره أنَّه أخذ له البيعة قبل وفاة المعتضد، ثمَّ جدَّدها بعد ذلك، وقال في كتابه: وقد أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين، وفي بيوت الأموال عشرة آلاف ألف دينار، ومن الدَّراهم أضعافها، ومن الجواهر ما قيمته كذلك، ومن الأثاث والأمتعة والكسوة والفُرش أضعاف ذلك، ومن الخيل والدوابّ والجمال والبغال عشرون ألفاً، وذكر أشياء كثيرة.

فكتب المكتفي: أمتعني الله بك أبا محمد ـ شرَّفه بالكنية ـ مَن كان موقعُه من دولتنا موقعَك، ومحلُّه فيها محلَّك من حمايتها وتأييدها والاجتهاد فيها يزيد من عزِّها وتمكينها، استحقَّ الحباء والكرامة، والسُّموَّ إلى أعلى المراتب، وقد أمرنا بتكنيتك بحضرتنا وفي مجالسنا؛ إظهاراً لموقعك منَّا، وحالك عندنا، ومستقرِّك من رأينا، على

(١) تاريخ الإسلام ٦/ ٦٦١-٦٦٢.
(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٢٨٦، وتاريخ بغداد ١١/ ٣٠٥.

أنَّ ما فعلنا معك ونفعلُه إنَّما هو دون ما تستحقّه، ودون مالَكَ من أنفسنا، فأظهِرْ كتابَنا هذا لمن بحضرتك من الخاصِّ والعامّ؛ تعريفاً لهم بهذا الإنعام، والسلام.

وقال الصُّولي: لما مات المعتضد تحرَّك الجند ببغداد قبل قدوم المكتفي من الرَّقَّة، فوضع القاسم الوزير فيهم العطاء فسكنوا، وأخذوا البيعة للمكتفي وسنُّه يومئذ خمس وعشرون سنة.

وخرج المكتفي من الرَّقَّة يوم الجمعة بعد الصَّلاة، وجدَّ في السَّير، فتلقَّاه القاسم بالأنبار ومعه النَّاس، ووافى بغداد يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الأولى، ومرَّ بدجلة في سُماريّة، وهو جالس على سريرٍ، والوزيرُ بين يديه، والطَّيارات حوله، وكان يوماً عظيماً حين وافى القصر الحَسني، وازدحم طيَّارُ مؤنس وطيَّارُ أبي عمر القاضي، فغرق أبو عمر بين الجسرين، ثمَّ أُخرج سالماً، وقيل للوزير: إنَّ أبا عمر قد غرق فاغتمَّ، فلمَّا قيل له: قد نجا سالماً سجد وقال: الحمد لله الذي لم يَفْجَعنا به[1].

وقال الخطيب: ركب المكتفي من الرَّقَّة في الفرات، وأمر الجيش فوافَوه على البَرِّ، فدخل بغداد، فنزل قصر الخلافة، وجلس للبيعة والتَّعزية[2]، فأنشده شاعر: [من الطويل]

أجلُّ الرَّزايا أن يموت إمام ... وأسنى العَطايا أن يقوم إمامُ
فأُسقي الذي مات الغَمام وجاده ... ودامت تحيَّاتٌ له وسلامُ
وأبقى الذي قام الإلهُ وزاده ... مواهبَ لا يَفنى لهنَّ دوامُ
ودامت له الآمالُ واتَّصلت بها ... فوائدُ موصولٌ بهنَّ تَمامُ
هو المكتفي بالله يَكفيه كلَّ ما ... عَناه برُكْنٍ منه ليس يُرامُ

ثمَّ خلع المكتفي على القاسم الوزير سبعَ خِلع، وقلَّده سيفاً.

وكان أوَّل ما فعل المكتفي في خلافته أنَّه أحضر إخوتَه، وضمَّهم إليه، وقبلهم، وعزَّاهم، ومنَّاهم، وهدم المطامير التي عَمرها أبوه، وجعل مواضعها مساجد، وكانت

(١) تاريخ الإسلام ٦/ ٦٦٢.

(٢) ينظر تاريخ بغداد ١٣/ ٢١٤، والمنتظم ١٣/ ٤.

صلاة الجمعة لا تقام ببغداد إلَّا في جامع المنصور والرصافة، وكان أهل دار الخلافة يصلُّون في غير جامع، فبنى موضعَ المطامير المسجدَ الجامع في الرَّحْبَة عند باب العامَّة، واستقرَّت الصَّلاة في الجوامع الثلاثة إلى خلافة المتَّقي، وأمر بردِّ الدُّور والبساتين والحوانيت التي أخذها أبوه بباب الشمَّاسيَّة على أهلها، ولم يأخذ منهم أثمانَها، وفرَّق أموالاً جَليلة، وردَّ المَظالم، وسار في النَّاس سيرةً جميلة، فمالت قلوب النَّاس إليه، وكثرت له الأدعية.

ومات عمرُو بن اللَّيث في غد اليوم الذي دخل فيه المكتفي إلى بغداد، ودُفن بالقرب من القصر الحسني.

وقد كان المعتضد عند موته لمَّا امتنع من الكلام أمر صافياً الحُرَميَّ بقتل عمرو، وأومأ إليه، وأشار بيده ووضعها على رقبته وعينه أن اذبح الأعور، وكان عمرو أعور، فلم يفعل صافي لعِلْمه بحال المعتضد وقُرب وفاته، فلمَّا وصل المكتفي ودخل بغداد سأل القاسمَ الوزير عن عمرو: أحيٌّ هو؟ قال: نعم، فسُرَّ بحياته وقال: أُريد أن أُحسِن إليه، وكان عمرو يُهدي إلى المكتفي ويَبَرُّه أيَّام مقامه بالرّي برًّا كثيراً، فذُكر أنَّ القاسم كره ذلك، فدسَّ إلى عمرو مَن قتله.

وفي رجب ورد الخبر إلى بغداد أنَّ جماعة من أهل الرَّيِّ كتبوا إلى محمد بن هارون الذي كان إسماعيل صاحب خُراسان بعثه لقتال محمد بن زيد العلويِّ وولاه طَبَرِستان، فخلع محمد بن هارون المكتفي، ولبس البَياض، وسأله أهل الرَّيِّ المصيرَ إليهم، وكان واليهم أوكرتُمش قد أساء السِّيرة فيهم، فصار محمد بن هارون إلى الرَّيِّ، فخرج عليه أوكرتمش فحاربه، فهزمه محمد وقتله، وقتل ابنَين له وقوَّادَه، ودخل الريَّ فاستولى عليها.

وفي رجب زُلزلت بغداد زَلزلةً عظيمة، ودامت أيَّاماً.

وفيها قُتل بدر المعتضدي، وسنذكره إن شاء الله تعالى[1].

وفيها خُلع على أحمد بن محمد بن بسْطام، ووُلِّي آمِد وديار ربيعة.

---

(١) تاريخ الطبري ١٠/ ٨٨-٨٩.

وفيها هبَّت ريحٌ بالبصرة، فقلعت عامَّةَ نخلها، ولم يُسمع بمثل ذلك.

وفيها ظهر بالشام يحيى بن زَكرويه، وجمع جموعاً كثيرة من الأعراب وغيرهم، فأتى دمشق وبها طُغْج بن جُفّ من قبل هارون بن خُمارويه، فخرج إليه طغج، فكان بينهما وقعات كثيرة في آخر هذه السنة، وقيل: في أول سنة تسعين.

والسبب في خروجه أنَّ زكرويه بن مهرويه داعية قرمط لمَّا رأى متابعة الجيوش من المعتضد إلى مَن بسواد الكوفة، وأنَّه أثخن فيهم القتل، ورأى أنَّهم لا طاقةَ لهم به، سعى في جماعة من الأعراب الذين يقربون من الكوفة من أسد وطيّئ وتميم وغيرهم، ودعاهم إلى رأيه، وزعم أنَّ مَن بالسَّواد يوافقونهم على أمرهم إن استجابوا له، فلم يستجيبوا له.

وكان جماعة من كلب وغيرهم يَخفِرون الطَّريق على السَّماوة فيما بين دمشق والكوفة على طريق تدمر وغيرها، ويحملون الرُّسل وأمتعة التجَّار على إبلهم، فأرسل زكرويه أولادَه إليهم، فبايعوهم وخالطوهم، وانتموا إلى عليِّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، وإلى [محمد بن] إسماعيل بن جعفر[1]، وذكروا أنَّهم خائفون من السُّلطان، وأنَّهم يلجؤون إليهم، فقبلوهم، ثمَّ دبُّوا فيهم بالدُّعاء إلى رأي القَرامطة، فلم يَقبل ذلك إلا قبيلةٌ من بني عَدي بن جَناب خاصة فقبلوهم، وبايعوهم في آخر هذه السّنة بناحية السَّماوَة.

وكان المشار إليه في القرامطة يحيى بن زكرويه، ويكنى أبا القاسم، ولقبه الشيخ، وزعم أنَّه أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد، وقيل: بل زعم أنَّه محمد بن عبدالله بن [محمد بن] إسماعيل بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين، وقيل: لم يكن لمحمد بن إسماعيل ابنٌ يسمَّى عبدالله، وزعم لهم أنَّ أباه المعروف بأبي محمود داعيةٌ له، وأنَّ له بالسَّواد والمشرق والمغرب مئة ألف تابع، وأنَّ ناقته التي يركبها مَأمورة، وأنَّهم متى اتَّبعوها في مسيرها ظَفروا، وأظهر عَضُداً له ناقصاً، وذكر أنَّه آية.

---

(١) مابين معكوفين من تاريخ الطبري ١٠/ ٩٥ .

وانحاز إليه جماعةٌ من بني الأصْبَغ، وتسمَّوا بالفاطميين، ودانوا بدينه، فقَصَدوا الرُّصافة التي غربي الفرات وبها شبل الدَّيلمي[1] مولى المعتضد فقتلوه، وأحرقوا مسجد الرُّصافة، واعترضوا كلَّ قرية اجتازوا بها من أعمال الشام، وهزم كلّ عسكر لقيه من دمشق، حتَّى قُتل في السَّنة الآتية.

وفيها كانت وقعة بين محمد بن هارون وأصحاب إسماعيل بن أحمد على باب الرَّي، وكان محمد في ثمانية آلاف، فكانت الدَّبْرة عليه، فانهزم إلى الدَّيلم في ألف رجل، واستجار بهم، ودخل أصحاب إسماعيل إلى الرَّيِّ.

وصلَّى المكتفي بالنَّاس يوم عيد النَّحر بالمصلَّى، وكان بين يديه ألوية الملك، وترجَّل الملوك والأمراء والنَّاس، فلمَّا انصرف من المصلَّى وبلغ الحَلْبة والوزير القاسم بين يديه راكبٌ دون النَّاس يسايره ويحادثه، ولم يُر خليفة يسايره وزيرُه ولا غيره في مثل هذا اليوم غير المكتفي.

وحجَّ بالنَّاس الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن عبيد الله بن العبَّاس بن محمد بن علي بن عبدالله بن عبَّاس.

[فصل] وفيها توفي

المُعْتَضِد

واسمه أحمد بن طلحة بن جعفر المتوكِّل بن المُعْتَصم بن الرشيد، وكنيتُه أبو العبَّاس، [وقد ذكرنا أنَّه] ولد في سنة اثنتين، أو ثلاث وأربعين ومئتين، [وقد ذكرنا وقائعه مع صاحب الزَّنج وشهامته وشجاعته وخلافته.

ذكر طرف من أخباره:

قد ذكرنا وقعة الطَّواحين، وذكره الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» وقال:] قدم دمشق لمحاربة خُمارَويه [بن أحمد بن طولون]، جهَّزه أبوه الموفَّق، فدخل من باب الفَراديس إلى الجامع، فأعجبه، وقال: مافي الدنيا [جامع] مثل هذا، ثمَّ سار إلى الرَّملة فواقع خمارويه، [وكان مع خمارويه خمسون ألفاً من المغاربة والبربر وغيرهم،

(١) في تاريخ الطبري ١٠/ ٩٥ : سبك الديلمي.

فهزمهم إلى مصر، ثمَّ خرج سعيد الأعْسَر على المعتضد في الكَمين فهزمه، فأتى طَرَسُوس][1]. وقد ذكرناه.

وذكره المبرِّد فقال: هو والله كما قال الأخطل: [من الكامل]

تسمُو العيونُ إلى إمامٍ عادلٍ مُعْطى المَهابةِ نافعٍ ضَرَّارِ
وترى عليه إذا العيونُ رَمَقْنَه سِيما الحَليم وهيبةَ الجبَّارِ[2]

وقال المسعودي [في «تاريخه»]: كان قليلَ الرَّحمة، وحكى عنه العجائب، منها أنَّه [قال:] كان إذا غضب على قائد أو على أحد من خواصِّه أو غلمانه أمر بأن تُحفر له حُفيرة، ثمَّ يُرمى فيها على أمِّ رأسه، ويُهال التراب على بعض جسده، ثمَّ يُداس وهو يراه، حتَّى تخرج روحه من دُبُره، وكانت له سياسة عظيمة[3].

[حديث اللّصوص الذين نزلوا المَقْثَأة:

ذكرها القاضي علي بن المُحَسِّن التنوخي[4] بإسناده إلى أبي محمد] عبد الله بن حَمْدون قال: خرج المعتضد في عسكره للصيد، فنزل إلى جانب مَقْثأة وأنا معه، فصاح ناطور المقثأة، فقال: عليَّ به، فأُحضر بين يديه، فسأله عن صياحه فقال: ثلاثة من الغلمان نزلوا المقثأة فأخربوها، فقال: أتعرفهم؟ قال: نعم، قال: اذهب فانظرهم، فذهب إلى العسكر فرآهم فعرفهم، فأتى بهم بين يديه، فحبسهم، فلمَّا كان في وقت السَّحر أخرجهم فضرب أعناقهم في المقثأة.

قال [أبو محمد] عبدالله [بن حمدون:] ثمَّ قال لي بعد أيام: يا عبد الله، ما يُنكر عليَّ النَّاس؟ قلت: لا شيء، فقال: بالله إلَّا صَدَقْتني، فقلت: إسرافُك في الدِّماء[5]، فقال: والله ما سفكتُ دماً حَراماً [قط] منذ ولِّيت الخلافة إلا بحقٍّ، قلت: فلِمَ قتلتَ أحمد بن الطَّيِّب وكان خادمَك؟ فقال: دعاني إلى الإلحاد فقلت: أنا ابن عمِّ رسول الله

---

(١) انظر مختصر تاريخ دمشق ٣/ ١١١ ، ١١٤ ، وانظر في ترجمة المعتضد تاريخ بغداد ٦/ ٧٩ ، والمنتظم ١٣/ ٧، والكامل ٧/ ٥١٣ ، والسير ١٣/ ٤٦٣ ، وتاريخ الإسلام ٦/ ٦٧٦ .

(٢) ديوانه ٨٠.

(٣) مروج الذهب ٨/ ١١٥-١١٦ .

(٤) في نشوار المحاضرة ١/ ٣٣١-٣٣٣ ، وعنه المنتظم ١٢/ ٣٠٧ .

(٥) في (ف): فقال: افتراؤك في الدنيا، وفي (م١): فقال: إسرافك في الدنيا، والمثبت من (خ)، وفي المنتظم: إسراعك إلى سفك الدماء.

ﷺ صاحبِ الشريعة، وأنا قائمٌ مقامه، أُلحد حتَّى أتبرَّأ منه؟! فقلت: فالثلاثة نزلوا المَقثأة؟ فقال: والله ما قتلتُهم، والذين قتلتُهم كانوا لصوصاً قد قَتلوا، أخرجتهم في الليل فقُتلوا، وأطلقت أولئك.

[ذكر قتله الأسد:

حكى القاضي التنوخي بإسناده إلى] خَفيف السَّمَرْقَنديّ [مولى المعتضد] قال: خرجتُ مع المعتضد في بعض مُتَصيَّداته وقد انقطع عنَّا العسكر، وليس معه غيري، فخرج علينا أسد فقَصَدَنا، فقال المعتضد: يا خفيف، أفيك خير؟ قلت: لا، قال: ولا تُمسك فرسي حتَّى أنزل أنا إليه؟ قلت: بلى، فنزل وأعطاني فَرسه، وشدَّ أطراف قَبائه في مِنطقته، واستلَّ سيفه، ورمى بالقُراب إليَّ فأخذتُه، وأقبل يمشي إلى الأسد، وقصده الأسد وحمل عليه، حتَّى إذا قرب منه وثب عليه، فتلقاه المعتضد بسيفه فقطع يده فطارت، فتشاغل الأسد بالضربة، فثنَّاه أخرى ففلق هامته، فخرَّ صَريعاً، فمسح السَّيف في صوفه وقد مات، ثمَّ رجع إليَّ فأخذ الغمد فأدخل السَّيف فيه، ثمَّ ركبنا وقصدنا العسكر، وصحبته إلى أن مات، فما سمعته يذكر الأسَد بلفظه، فلا أدري من أيِّ شيءٍ أعجب من شجاعته وشدَّته، أم من قلَّة احتفاله بما صنع حتَّى كتمه، أم من عفوه عنِّي؛ فما عاتبني على ضنِّي بنفسي[1]؟!

[حكاية تدلُّ على عفَّته:

قال الخطيب بإسناده إلى] إسماعيل بن إسحاق القاضي قال: دخلتُ[2] على المعتضد وعلى رأسه أحداثٌ صِباحُ الوجوه رومٌ وتُرْكٌ وغيرهم، فجعلت أتأمَّلهم ففطن، فلمَّا أردت القيام قال: اقعد، فقعدتُ، فلمَّا خلا المجلس قال: يا قاضي، والله ما حَلَلتُ سراويلي على حرام قطُّ.

[ذكر قصَّته مع العبد الأسود:

ذكرها] القاضي التنوخي بإسناده قال[3]: كان المعتضد يوماً جالساً في بيت له

---

(١) في (خ): على ضني بنفسه منه، وفي (ف م١): طني عنه، والمثبت من نشوار المحاضرة ٣/ ٢٦٠، والمنتظم ١٢/ ٣١٥.

(٢) في (خ): وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي دخلت، والمثبت من (ف م١)، والخبر في تاريخ بغداد ٦/ ٨٠.

(٣) في (خ): وحكى القاضي التنوخي بإسناده قال، والمثبت من (ف) و(م١)، والخبر في الأذكياء ٥٩-٦٠ عن المحسن التنوخي.

يشاهد الصُّنَّاع يبنون، فرأى [في] الفَعَلة غلاماً أسودَ، مُنكَر الخَلْق، شديدَ المرَح، يصعد على السلالم مِرْقاتين مرقاتين، ويحمل أضعافَ ما يحمله غيره، فأنكر ذلك، وقال لابن حمدون: أيّ شيءٍ يقع لك في أمره؟ فقال: ومَن هو هذا حتَّى صرفتَ فِكرَك إليه؟ ولعلَّه لا عيال له، فهو خالي القلب، فقال المعتضد: قد خمَّنتُ فيه تخميناً إمَّا أن يكون معه دنانير قد ظَفِر بها، أو يكون لصًّا يتستَّر بالعمل في الطِّين.

فأحضره وقال: مَقارِع، فضُرب مئةَ مَقْرَعَة، فلم يُقرَّ بشيءٍ، فقال: عليَّ بالسَّيف والنِّطع، وقال: اضربوا عُنُقه، فقال الأسود: أنا آمِن؟ فقال: نعم، إلَّا ما كان فيه حدٌّ، فلم يفهم ما قال، وظنَّ أنَّه قد أمَّنه، فقال: كنتُ أعمل في أتاتين[1] الآجر مدَّة، فمرَّ رجل، وحلَّ من وَسَطه هِمْياناً، وأخرج منه دنانير، ثمَّ شدَّه، فقمتُ إليه فكتَّفْتُه، وسَدَدْتُ فاه، وألقيته في نُقرة الأتُّون وطيَّنتُه، فلمَّا كان بعد أيام أخرجتُ عِظامَه، وطرحتُها في دجلة، والدَّنانير معي أتقوَّى بها.

فأمر المعتضد بحلِّ الهِميان من وسطه، فحُلَّ، وإذا اسمه عليه مكتوب، فنودي في البلد باسمه، فجاءت امرأتُه ومعها طفلٌ صغير، فقالت: زوجي، وهذا ابني منه، وإنَّه خرج من عندي يوم كذا وكذا ومعه هِمْيان فيه ألفُ دينار، فغاب إلى الآن، ولا أدري ما فُعل به، فأعطاها الهِمْيان، وأمرها أن تعتدَّ، وضرب عنق الأسود.

[حديث الغلام:

حكى القاضي التنوخي عن أبيه قال:] قام[2] المعتضد ليلة لحاجة له، فرأى بعض الغلمان [قد نهض عن ظهر غلام، ومشى على أربع حتَّى اندسَّ بين الغلمان]، فجاء المعتضد، فجعل يضع يده على صدر واحد واحد، إلى أن وضع يده على صدر ذاك الغلام، فرأى فؤادَه يخفق خَفَقاناً شديداً، فركضه برجله فقعد، فقال: وَيْحك ما صنعتَ؟ فأنكر، فدَعى بآلة العقوبة، فأقرَّ، فقتله.

[حديث الصياد:

حكى القاضي المحسّن أيضاً قال: بلغنا أن خادماً من خدم المعتضد جاء يوماً

(١) واحدها أتون، الموقد. لسان العرب (أتن).

(٢) مابين معكوفين من (ف م١)، والخبر في الأذكياء ٦٠ عن التنوخي.

فأخبره] أنَّه[1] كان قائماً على دجلة، فرأى صياداً قد طرح شبكتَه، فتعلَّقت بشيءٍ ثقيل، فأخرجها، وإذا بجراب، فظنَّه مالاً، وإذا فيه آجُرّ وبين الآجر كف مخضوبة بالحِنَّاء، فتحيَّر المعتضد وقال: قل للصيَّاد يَطرح الشَّبَكة، فطرحها، فخرج فيها جراب فيه رِجْل، ورمى الشبكة فلم يخرج شيءٌ، فتحيَّر المعتضد وقال: إنَّا لله، معي في البلد مَنْ يَقتل النَّاسَ ويقطِّع أعضاءهم؟! ما هذا مُلْك.

وأقام يومه مَغموماً لم يَطْعم طعاماً، واستدعى برجلٍ لا يُؤبه إليه، وأعطاه الجراب فارغاً، وقال له: طُفْ به في البلد على كلِّ من يعمل الجُرُب، وابحث عنه، فأخذه الرجل، وغاب ثلاثة أيام، وعاد فأخبره أنَّه طاف الدَّبَّاغين وأصحاب الجُرُب حتَّى عرف صانعه، وأنَّه سأله عنه، فقال: نعم، اشتراه منِّي عَطَّارٌ بسوق يحيى، وأنَّه اشتراه منه ومعه عشرة جُرُب، [وهو] فلان الهاشميّ من ولد المهديِّ، عظيم إلا أنَّه أشرُّ النَّاس وأفسدُهم لحريم المسلمين، ومافي البلد مَن يُنهي خبرَه إلى المعتضد؛ خوفاً من شرِّه وتمكّنه من الدّولة والمال والجاه، فلم يزل يحدِّثني حتَّى قال: وحسبُك أنَّه كان يَعْشَق فلانة المغنّية جارية فلانة المغنّية، وكانت كالدِّينار المنقوش، وكالقمر الطَّالع، وكانت قد باعتها بألف دينار، فبعث إليها بدنانير عن حقّ ثلاثة أيام، وقال: لا أقلّ من [أن] أودّعها، فلمَّا صارت إليه غيَّبها، وادَّعى أنَّها هربت من داره، فلم يُعرَف لها خَبَر، وقال الجيران: إنَّه قتلها، وقد أقامت عليها مولاتها المأتم، وكلَّما جاءت إلى بابه شتمها وضربها.

فلمَّا سمع المعتضد هذا سجد شكراً لله حيث انكشف له الأمر، وأرسل إلى الهاشميِّ فأحضره وستّ الجارية، وأخرج اليد والرِّجْل، فلمَّا رآها الهاشميُّ امتُقع لونُه، وأيقن بالهلاك، فقال: اقتلوه، فكلَّمه فيه الوزير عبيد الله وقال: الحبس، فحبسه، وأغرمَه ثمنَ الجارية، ودفعه إلى ستِّها، واستأصله وباع عقاره، فلا يُدرى هل قتله أم مات في الحبس؟!.

---

(١) ما بين معكوفين من (ف م١)، وجاء بدله في (خ): وأخبر بعض خدامه أنه، والخبر في الأذكياء ٦٠-٦٢ عن التنوخي.

[ذكر قصَّة المعتضد مع القَطَّان:

وهي من أحسن ما يُسَطَّر، حكاها القاضي المُحَسِّن عن أبيه بإسناده عن القاضي أبي عليٍّ] الحسن بن إسماعيل بن إسحاق[1] وكان ينادم المعتضد، قال: بينا المعتضدُ في مجلس سرور إذ دخل بدر فقال: يا مولاي، قد أحضرنا القطَّان الذي من بِرْكة زُلْزُل، فنهض المعتضد من مجلسه، ولبس قَباءً، وأخذ بيده حَرْبة، وقعد على كرسيٍّ، وبيننا وبينه ستارة نشاهده من ورائها، وأُدخل شيخٌ ضعيف، فصاح عليه بصوتٍ عالٍ ووجهٍ مُغْضَب: أنت القطَّان الذي قلتَ بالأمس ما قلت؟ فأُغمي عليه من الخوف، ثمَّ أفاق، فقال له: وَيْلَك، تقول في سوقك: ليس للمسلمين مَن ينظر في أمورهم، فأين أنا؟ وما شغلي غير ذلك؟ فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أنا رجلٌ قطَّان أعيش من القُطْن الذي أعامل به النِّساء، ولا تمييز على مثلي فيما يَلْفِظ به، وإنما اجتاز بي رجلٌ ابتعتُ منه قطناً، وكان ميزانه ناقصاً، فقلتُ ما قلت، وإنَّما عنيتُ به المُحْتَسِبَ علينا لا أميرَ المؤمنين، فقال له المعتضد: آالله إنَّك أردتَ المحتسب؟ قال: أي والله، قال: انصرف فلا بأس عليك.

ثمَّ أحضر المحتسب في الحال، ونال منه، [وأمره] بالكشف عن الموازين لئلَّا يبخس النَّاس، وتوعَّده وشدَّد عليه، [ثمَّ عاد المعتضد إلى مجلسه وهو يضحك وقد غيَّر لباسه،] وعاد إلى ما كان عليه.

قال الحسن بن إسماعيل: فقلت [له]: يا مولاي، قد عرفتَ فضولي، أفتأذن لي في القول؟ فقال: قل، فقلت: كنتَ على أكمل مَسَرَّة، فتركتَ ذلك، وشغلتَ الزَّمان بخطابِ رجلٍ من السُّوقة، قد كان يكفيه أن يؤدِّبه بعض الرَّجَّالة، ثمَّ لم يكْفِكَ ذلك حتّى غيَّرتَ لباسَك، ولبستَ سلاحَك، وناظرتَه بنفسك! فقال: يا حسن، أنت تعلم ما يجرُّه هذا القول إذا تداولتْه الألسنة، ووعتْه الأسماعُ، وحصل في القلوب، فربَّما أخرج العوامّ ذلك إلى المخالفة، وخلعِ الطَّاعة، وإثارة الفتنة، وإفساد النِّظام، وليس شيءٌ أبلغ في قطع هذه الأسباب وحسم موادّها من إزالة دواعيها، وقد طارت روحُ هذا

(١) في (خ) وقال الحسن بن إسماعيل بن إسحاق، والمثبت من (ف) و(م١)، والخبر في نشوار المحاضرة ١/ ٣٢٦-٣٢٨، وعنه المنتظم ١٢/ ٣١٥.

القطّان من الخوف، وسيحدِّث بما جرى العامَّةَ، ويزيد فيه، ويُسمع الناسَ ما تقدَّمنا به إلى المحتسب، وما نحن عليه من النَّظر في أمور الرعيَّة، فتكفُّ العامَّة ألسنتَها عنَّا، وتقوم الهيبة في نفوسها، ويكون ما تكلَّفتُ من هذا القليل قد كفاني مُؤنة التَّعب في الكثير، [قال:] فدعونا له.

[حديث المعتضد مع الملَّاح:]

حكى القاضي المحسّن عن أبيه، عن الحسن بن محمد الصِّلحي قال: حدَّثني أحد خُدَّام المعتضد قال:] كان المعتضد[1] يوماً نائماً نصف النَّهار فصاح: يا غلمان، انزلوا الشَّطَّ، فأوَّل ملَّاح ترونه مُنحَدِراً فأتوني به، فنزلوا، وإذا بملَّاح مُنْحَدر إلى واسط وسفينتُه فارغة، فأحضروه بين يديه، فقال له: حدِّثني حديث المرأة، فتلكَّأ عليه، فقال له: اصدق، فقد عرفتُ حالها، فقال: يا أمير المؤمنين، نزلتْ معي اليوم وقتَ السَّحَر امرأةٌ جميلة، وعليها ثياب لها قيمة وحليّ، فطمِعْتُ فيها، فغرَّقْتُها وأخذتُ ما كان عليها، وقلتُ أذهب إلى واسط فأعيش فيه، فقال: أحضِر الثِّيابَ والحلي، فأحضره، ثمَّ نادى في بغداد على المرأة، فجاء أهلُها، فأعطاهم الثِّياب والحليّ، وغرَّق الملَّاح ونادى: لا ينزل أحدٌ مع ملَّاح حتى يطلع النَّهار، فقال له بعض الخدم: يا مولاي، أُوحي إليك؟ قال: لا، ولكن رأيتُ في منامي الساعة شيخاً أبيض الرأس واللحية يقول: يا أحمد، أوّل ملَّاح ينحدر السَّاعة اقبض عليه، وقرِّرْه على المرأة التي قتلها، وأقِمْ عليه الحدَّ، فكان ما رأيتم.

[حديث الخيّاط:]

حكى القاضي المحسِّن أنَّ بعض التُّجَّار كان له على بعض القُوَّاد دَيْن، فمطله مدَّة ولم يعطه شيئاً، فقال له بعض معارفه: فأين أنت من فلان الخيَّاط؟ فقال: وما يصنع الخيَّاط بالقائد؟! فقال: بلى، قم بنا إليه.

فجاء به إلى الخيَّاط، وكان في مسجد يَخيط الثياب ويُقرئ القرآن، فقصَّ عليه القصَّة، فنهض معه إلى القائد، فأكرمه واحترمه وقام إليه، فقال: هل من حاجة؟ قال:

---

(١) في (خ): وقال بعض خدم المعتضد: كان المعتضد، والمثبت من (ف م١)، والخبر في المنتظم ١٢/ ٣١١-٣١٣ عن المحسن.

نعم، هذا الشيخ تُعطيه مالَه، فقال: إي والله، معي بعضُه ويصبر بالبعض، فأخذ ما كان معه وخرجوا، فقال التاجر للخياط: قد تفضَّلتَ [عليّ] وأنعمتَ، فأخبرْني ما سببُ انقياد هذا الظالم لك؟ فقال: أنا منذ أربعين سنة أُقرئ القرآن في هذا المسجد وأخيط، وليس بيني وبين أحد أمر، صلَّيت المغرب ليلةً، وخرجتُ أريد بيتي، وإذا بتركيٍّ قد تشبَّث بامرأة طويلة جميلة وهو سكران، وهو يسحبها إلى داره، وهي تبكي وتقول: قد حلف زوجي بالطَّلاق أنَّني لا أبيت إلَّا في داري، وإنَّما خرجت إلى الحمَّام.

[قال:] فتقدَّمتُ إليه وسألتُه فيها، فضربني بدَبّوس فشجَّ رأسي، وأدخلها إلى داره قهراً، فأتيتُ المسجد، فصليتُ العشاء الآخرة، وقلت لأصحابي: قوموا بنا نخلِّص المرأة، فأتينا باب داره، فخرج هو وغلمانه فضربونا ضرباً شديداً كدتُ أموت، وحملوني إلى بيتي فلم أقدر على النَّوم، وفكَّرت في أمر المرأة وطلاقِها، فصعدتُ إلى المنارة التي في المسجد وقلت: أؤذن فالتركي ما يعرف الوقت ـ وكانت داره قريبة من المسجد ـ فلعلَّه أن يخرجها قبل الفجر، فأذَّنتُ نصف الليل ونزلتُ، فجلستُ على الطريق أنتظر خروج المرأة، وإذا بالشارع قد امتلأ خيلاً ورَجِلاً ومشاعل، فقالوا: من أذَّن الساعةَ؟ فقلت: أنا، فحملوني وأدخلوني على المعتضد، وهو جالس والشمع على أنصافه[1]، فقال: أنت أذَّنت الساعة؟ قلت: نعم، فقال: ما حملك على أن تَغُرّ النَّاس [بأذانك] في هذا الوقت؟ فقصصتُ عليه القصَّة، وأريتُه الآثارَ التي في وجهي ورأسي وبدني، فقال: يا بدر، الساعة تحضر المرأة والتركيَّ فحضرا، فسألها [المعتضد] عن حالها، فذكرت له مثل ما ذكرتُ له، فقال لبعض الخدم: امض معها إلى زوجها، وقل له يحسن إليها ولا يفارقها، ثمَّ قال للتركيِّ: كم عطاؤك في كلِّ شهر؟ فقال: كذا وكذا، فقال: أما كان لك ما يُغنيك عن هتك محارم الله حتَّى وثبتَ على هذا الشيخ الصَّالح، وفعلتَ به هذا الفعل حيث أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر؟

ثمَّ قال: جَوالِق[2] ومَداقّ الجَصّ. فقيَّد التركيَّ وجعله في الجوالق، وأمر الفرَّاشين فدقُّوه حتَّى فتَّتوا عظامه، ثمَّ رمى به في دجلة، وقال: يا شيخ، متى ما رأيت مُنكراً قلَّ أو كثر فالعلامة بيننا الأذان في مثل ذلك [الوقت].

---

(١) في (ف): أصنافه.

(٢) وعاء كبير، أو هو العِدْل من صوف أو من شعر، وعند العامة (شوال)، معرب.

وشاع الخبر في الجند وغيرهم، فما سألتُ أحداً منهم إنصافاً أو كفًّا عن القبيح إلَّا وأطاعني[١].

حديث الخادم:

ذكر الحافظ ابن عساكر عن القاضي أبي عمر محمد بن يوسف قال: قدم خادم[٢] من وجوه خدم المعتضد إلى أبي في حكومة، فارتفع في المجلسِ على خصمه، فأمره الحاجب بموازاة خَصمه فلم يفعل؛ إدْلالاً بمحلِّه من الدَّولة، فصاح عليه أبي وقال: قِفاه، يا غلام، اذهب بهذا العبد إلى النَّخَّاس، فبعه واحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين، فأخذ الحاجب بيده وسوَّاه مع خصمه وحكم عليه، فجاء إلى الخليفة وبكى بين يديه، وقال: فعل بي وفعل، فصاح عليه المعتضد وقال: والله لو باعك لأَجَزْتُ بيعَه، ولما رَجَعتَ إلى ملكي أبداً، وليست خصوصيتك بي مما يزيل مرتبة الحكم، فإنَّه عمود السلطان وقوام الأديان[٣].

وقال عبيد الله الوزير: كنت ليلة عند المعتضد وغلام بيده المَذَبَّة يروح عليه، فنَعِس الغلام، فأصاب بالمذبَّةِ قَلَنْسُوةَ المعتضد، فوقعت من رأسه، فقال له: اذهب واسترح. وغُصْتُ والله في الأرض خوفاً من هيبته فقلت: والله يا أمير المؤمنين، ما سمعتُ بمثل هذا الحِلْم، فقال: وهل يجوز غير هذا؟ إنَّ هذا البائس لو دار في خَلَده ما جرى لذهب عقلُه، وتَلِفَت نَفْسُه، وقد طال تَعبُه ونُعاسه، وإنَّما يلحق الإنكارُ المتعمِّدَ لا الخاطئ ولا الساهي، ثمَّ زاد في عدد غلمانه برسم المذبّة.

[حديث المعتضد مع المجوسي:]

قال محمد بن عبد الملك: أراد المعتضد تجهيز جيش، فعجز عليه بيتُ مال العامَّة، فأُخبر بمجوسيٍّ له مال عظيم، فاستدعاه وقال: تقرضني كذا وكذا من المال وأُعيده إليك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أنا ومالي بين يديك، فقال: كيف وثِقْتَ بنا أننا نردُّ

---

(١) نشوار المحاضرة ١/ ٣١٥، والمنتظم ١٢/ ٣١٧.

(٢) في (خ): وقال القاضي أبو عمرو محمد بن يوسف قدم خادم، والمثبت من (ف) و(م١)، والخبر في مختصر تاريخ دمشق ٣/ ١١٥، ونشوار المحاضرة ١/ ٢٤٥.

(٣) في النسخ: الأبدان. والمثبت من المصادر.

إليك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله قد ائتَمَنَك على عباده وبلاده، تؤدِّي الأمانة، وتُفيض العَدْل، وتحكم بالحق، أفلا أأتمنك أنا على جزء من مالي؟ فدمعت عيناه وقال: انصرف فقد وفَّر الله عليك مالك وأغنانا عن القرض منك، ومتى كانت لك حاجة فحِجابُنا مرفوع عنك [ولم يقترض منه شيئاً].

وقال محمد بن حَمْدون: خرج[١] المعتضد يوماً فعسكر بباب الشمَّاسية، ونهى أن يأخذ أحدٌ من بستان أحدٍ شيئاً، فأُتي بأسود قد أخذ عَذْقاً من البُسْر، فأمر بضرب عُنقه، ثمَّ التفت إلى أصحابه وقال: تقول العامَّة: ما في الدنيا أقسى قلباً من الخليفة، ولا أقلَّ ديناً منه، والنبيُّ ﷺ يقول: «لا قَطْع في كَثَرٍ ولا ثَمَر[٢]» وما رضي بقطعه حتَّى قتله، والله ما قتلتُه بهذا السبب، ولكن لي مع هذا الأسود قصَّة عجيبة.

استأمن هذا الأسود إلى أبي من عسكر الزَّنج، فخلع عليه أبي ووصله، وقصد أن يستميل به الزَّنج، فرأيتُه يوماً وقد نازع رجلاً في شيء، فضربه بفأس فقتله، فأهدر أبي دمَ المقتول، وأطلق الأسود ليتألَّف به الزَّنج، فاغتظتُ، وقلت: ترى أتمكّن من هذا الأسود وأنفذ حكم الله فيه، وطلبتُه فلم أقدر عليه، ووالله ما وقعت عيني عليه إلا في هذه الساعة، فقتلته بذلك الرجل[٣].

ذكر ما عُزي إليه من الأشعار:

ومنها: [مجزوء الرمل]

غَلَبَ الشَّوقُ رُقادي ... مثل غَلْبي للأعادي
ههنا جسمي مُقيمٌ ... وببغدادَ فؤادي
أملكُ الأرض ولكن ... تملكُ الخَودُ قيادي
هكذا كلُّ مُحِبٍّ ... باع نوماً بسُهاد[٤]

---

(١) في (ف م١): حديث المعتضد مع أسود آخر حكى محمد بن حمدون قال خرج، والمثبت من (خ).
(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٠٤)، وأبو داود (٤٣٨٨)، والترمذي (١٤٤٩)، والنسائي ٨/ ٨٧-٨٨، وفي الكبرى (٧٤٠٧)، وابن ماجه (٢٥٩٣) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.
(٣) من هنا إلى وفاة المعتضد ليس في (ف) و(م١)، والأخبار الثلاثة في المنتظم ١٢/ ٣٢٤-٣٢٥.
(٤) ذكر هذه الأبيات ابن العديم في بغية الطلب ٢/ ٨٢٠.

وقال في جارية تُوفّيت له: [من السريع]

لم أبكِ للدَّار ولكنْ لمن [قد] كان فيها مرَّةً ساكنا
فخانني الدَّهرُ بفقدانِهِ وكنتُ من قبلُ له آمنا
ودَّعتُ صَبري عند توديعه وبات قلبي معه ظاعِنا

فقال له عبيد الله الوزير: يا أمير المؤمنين، مثلُك تهون عليه المصائب؛ لأنَّك تجد لمن كان فقيداً خَلَفاً، وتقدر على ما تريد، والعوض منك غير موجود، وقد قال الشاعر: [من البسيط]

يُبكى علينا ولا نبكي على أحدٍ إنَّا لَأغلظُ أكباداً من الإبلِ

قال أبو عُبيد: الإبل لا توصف بغِلَظ الأكباد، وقد غلط النَّاس في هذا، بل توصف بالرِّقة والحنين.

قال المصنف رحمه الله: هب أنَّ الفاقد وَجَد، فأين قول القائل حيث قال: [من البسيط]

لي حُسْنُ عَهْدٍ فلو أنِّي رُدِدْت إلى شَبيبتي لبكيتُ الشَّيب ألوانا

وقال ابن المعتزّ يرثي هذه الجارية: [من الخفيف]

يا إمامَ الهدى بنا لا بك الغمُّ وأفنيتَنا وعِشْتَ سَليما
أنتَ علَّمتَنا على النِّعم الشُّكـ ـرَ وعند المصائب التَّسليما
فاسلُ عمَّا مضى فإنَّ التي كا نت سروراً صارت ثواباً عظيماً
قد رَضينا بأنْ نموتَ وتحيا إنَّ عندي في ذاك حَظًّا جَسيما
مَنْ يَمُت طائعاً لديكَ فقد أُعْطـ ـيَ فوزاً ومات موتاً كريما

وللمعتضد فيها: [من مجزوء الرمل]

يا حَبيباً لم يكن يَعْدِلُه عندي حَبيبُ
أنتَ من عيني بعيدٌ ومن القلب قريبُ
ليس لي بعدَكَ في شيءٍ من الدُّنيا نَصيبُ
لكَ من قلبي على قلـ ـبي وإن بِنْتَ رقيبُ
لو تراني كيف لي بعدَك عَوْلٌ ونَحيبُ

وفـــؤادي حَـــشْـــوه جَـــمْـــرٌ يُـــذكِّـــيـــه لَـــهـــيـــبُ
مـــا أرى نـــفـــســـي وإنْ طـيِّـبْـتُـهـا عـنـك تـطـيـبُ
لـيَ دمـعٌ لـيـس يَـعْـصـيـ ـنـي وصَـبـرٌ مـا يُـجـيـبُ[1]

وقال لمَّا كان على آمد: [من المتقارب]

مُـقـيـمٌ بـآمِـدَ ذي غُـربـةٍ قـلـيـلُ الـرُّقـاد كـثـيـرُ الألَـمْ
وكـيـف يَـلَـذُّ لـذيـذَ الـرُّقـادِ أخـو فِـكـرةٍ قـلـبُـه مُـقْـتَـسَـمْ
إذا مـا تَـنـبَّـه مـن رَقْـدةٍ لـمـا فـي الـحـشـا مـن جَـوى لـم يَـنَـمْ

وقال أيضاً حيث يقول: [من المنسرح]

يـا لاحـظـي بـالـفُـتـورِ والـدَّعَـجِ وقـاتـلـي بـالـدَّلالِ والـغَـنَـجِ
أشـكـو إلـيـك الـذي لَـقـيـتُ مـن الـ ـوَجْـد فـهـل لـي لـديـكَ مـن فَـرَجِ
حَـلَـلْـتَ بـالـظَّـرْف والـجـمـال مـن الـنـ ـنـاسِ مـحـلَّ الـعـيـون والـمُـهَـجِ

وقال لجلسائه: أرِقْتُ الليلة وقد قلت: [من الطويل]

ولـمَّـا انـتـبَـهْـنـا لـلـخـيـال الـذي سَـرَى

فأجيزوه، فقال ابن العلَّاف الشاعر:

إذِ الأرض قَـفْـرٌ والـمَـزارُ بـعـيـدُ

وهو من أبيات أولها:

سَرى طَيْفُ سُعدى طارِقاً فاستَفَزَّني سُـحَـيْـراً وصَـحْـبـي بـالـفـلاة رُقـودُ
فـلـمَّـا انـتـبـهـنـا لـلـخـيـال الـذي سـرى إذِ الأرضُ قَـفْـرٌ والـمـزارُ بـعـيـدُ
فقلت لعيني عاودي النَّومَ واهجعي لـعـلَّ خـيـالاً طـارِقـاً سـيـعـودُ[2]

ذكر وفاته:

كان المعتضد[3] قد أمر بإخراج النَّاس من دورهم وحوانيتهم بباب الشمَّاسيَّة، وأنْ يأخذ النَّاسُ أنقاضَهم، وعزم أن يبني هناك قصراً ودوراً لأصحابه، فدعا النَّاسُ عليه،

(١) المنتظم ١٢/ ٣٢٥-٣٢٧.
(٢) المنتظم ١٣/ ٣٠٠.
(٣) في (ف) و(م١): ذكر وفاة المعتضد، قال الخطيب: كان المعتضد، والمثبت من (خ).

واتَّفق مرضه فاشتغل عن ذلك.

وسبب وفاته غلبة اليَبس[١] من كثرة الجماع، فكان الأطبَّاء يأمرونه بما يرطِّب مَعِدته، فكان يُريهم أنَّه يحتمي، فإذا خرجوا من عنده أحضر الزيتون والخبز والصِّحناة والسمك فأكل، فلم يزل كذلك حتى سقطت قوَّتُه.

وقيل كان[٢] إسماعيل بن بُلبل قد سمَّه خوفاً منه، فما زال السُّمُّ يجري في بدنه، واتّفق عصيان وصيف الخادم بطَرَسُوس، فخرج من بغداد في شدَّة القبض لا يَلوي على شيء حتَّى نزل طرسوس، وعاد وقد نَحِل جسمه.

وقيل: سمَّته جارية في منديل أعطته إياه ليتمسَّح به.

وقال المسعوديُّ: شكُّوا في موته، فتقدَّم إليه بعض الأطباء فجسَّ نَبْضَه، فرفَسَه برجله فألقاه أذْرُعاً، فمات الطبيب، ومات المعتضد من ساعته[٣].

وكانت وفاته بقصره الحسني[٤] ليلة الأحد لسبع بقين من ربيع الآخر [سنة تسع وثمانين ومئتين] على خمس ساعات من الليل، وقيل: لثمانٍ بقين منه.

وأوصى أن يُدفن في دار محمد بن طاهر، وهو الحريم الطَّاهري اليوم في الجانب الغربي من بغداد، فدُفن بدارٍ [تعرف بدار] الرُّخام، وقبره بها اليوم، وغسَّله أحمد بن شَيبة.

وأوصى أن يحضر جنازته الأكابر، فحضر الوزير القاسم، والقضاة أبو خازم، ويوسف بن يعقوب وهو الذي صلّى عليه، وحمل من قصره الحسنيّ ليلاً إلى دار ابن طاهر.

[وحكى الخطيب عن] صافي الحُرَمي قال: كفَّنته[٥] في ثوبين أبيضين قيمتهما ستة عشر قيراطاً.

---

(١) في (ف م١): واختلفوا في سبب وفاته فقال الصولي غلب عليه اليبس.

(٢) في (ف م١): وقال سعيد بن غالب كان.

(٣) مروج الذهب ٨/ ٢١٢.

(٤) في (ف) و(م١): وقال الصولي: كانت وفاته في قصره الحسيني.....

(٥) في (خ): وقال صافي الحرمي: كفنته...، والمثبت وما بين معكوفين من (ف) و(م١)، وكلام الخطيب في تاريخه ٦/ ٨٣.

وقال وصيف خادمُه: سمعتُه يقول عند موته: [من الطويل]

تمتَّع من الدُّنيا فإنَّك لا تبقى ... وخُذْ صَفْوها ما إنْ صَفَتْ ودَعِ الرَّنْقَا
ولا تأمَنَنَّ الدَّهرَ إنِّي أمِنتُه ... فلم يُبْقِ لي حالاً ولم يَرْعَ لي حَقّا
قتلتُ صَناديدَ الرِّجال فلم أدَعْ ... عَدوًّا ولم أُمهِلْ على ظِنَّةٍ خَلْقا
وأخليتُ دور المُلْك من كلِّ بازِلٍ ... وشَتَّتهم غرباً ومزَّقْتُهم شَرْقاً
فلمَّا بلغتُ النَّجمَ عِزًّا ورِفعةً ... ودانت رقابُ الخلقِ أجمع لي رِقّا
رماني الرَّدى سَهْماً فأخْمَد جَمْرتي ... فها أنا ذا في حُفرتي عاجلاً مُلْقى
فأفسَدْتُ دُنياي ودِيني سَفاهةً ... فمَنْ ذا الذي منِّي بمَصْرَعِه أَشْقى
فياليت شِعري بعد موتيَ ما أرى ... إلى نعمةٍ لله أم ناره ألقى

وكانت سنه يوم مات سبعاً وأربعين سنة، وقيل: خمساً أو ستاً وأربعين سنة وأشهراً وأياماً، وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام، وقيل: ويومين، وقيل: وخمسة أيام، وقيل: عشر سنين وتسعة أشهر.

ورثاه عبد الله بن المعتز[1] فقال: [من البسيط]

أستغفر الله هذا كلُّه قَدَرٌ ... رَضيتُ بالله ربًّا واحداً صَمدا
يا ساكنَ القبر في غَبْراءَ مُظلمةٍ ... بالطَّاهرية نائي الدَّارِ مُنْفَردا
أين الجيوشُ التي قد كنتَ تَصْحَبها ... أين الكنوزُ التي أحصيتَها عَددا
أين السَّرير الذي قد كنتَ تملؤه ... مَهابةً مَن رأتْه عينُه ارتَعدا
أين الأعادي الأُلَى ذلَّلْتَ صَعْبَهمُ ... أين اللُّيوثُ التي صيَّرتَها نَقَدا[2]
أين الوفودُ على الأبواب عاكفةً ... يَرجون فَضْلَكَ ما يأتي وما اطَّردا
أين الجيادُ التي حجَّلْتَها بدمٍ ... وكنَّ يَحمِلْنَ منك الضَّيغَمَ الأسدا

(١) في (ف م١): واختلفوا في سنه على أقوال؛ أحدها: سبعة وأربعون سنة، والثاني: خمس أو ست وأربعون سنة وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً، حكاه الطبري وقال: كانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام، وكانت وفاته في ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين ومئتين، وخلافته تسع سنين، وتسعة أشهر، ويومين، وقيل: وخمسة أيام، وقد ذكرنا ما خلف من المال وغيره عند بيعة المكتفي، وقال الصولي: ورثاه عبدالله بن المعتز.اهـ. وليس فيهما الأبيات الآتية، ولم نقف على كلام الطبري في تاريخه.

(٢) النَّقَدُ: صغار الغنم. اللسان (نقد).

أين الرماح التي غذَّيتَها مُهَجاً ... مذ مِتَّ ما وَرَدَتْ قلباً ولا كبدا
ثمَّ انقضيتَ فلا عَينٌ ولا أَثَرٌ ... حتَّى كأنَّك يوماً لم تكنْ أبدا[1]

ذكر أولاده:

كان له من الولد علي المكتفي، وجعفر المقتدر، ومحمد القاهر، وهارون، وأحد عشر بنتاً، وقيل: سبع عشرة بنتاً[2].

ذكر وزرائه وقضاته:

وَزَرَ له: إسماعيل بن بلبل، ثمَّ عبيد الله بن سليمان، ثمَّ ابنه القاسم بن عبيد الله، وقضاته: إسماعيل بن إسحاق بن حمَّاد بن زيد، وابن أبي الشَّوارب، ويوسف بن يعقوب.

وحكى عن المعتضد قال[3]: رُفع إليه أنَّ أقواماً يجتمعون ويُرجِفون ويخوضون في الفضول، ويُخاف منهم على الدَّولة، فرمى بالرُّقْعَة إلى عبيد الله الوزير وقال: ما ترى؟ قال: الرأي صَلْبُ بعضهم، وإحراقُ البعض، والمُثْلة ببعضهم؛ لتتَّعظ العامَّة بهم، فقال له المعتضد: والله لقد برَّدتَ لَهيب غضبي بقسوتك، وعطَّفتَني عليهم بعد السّخط، وما كنت أعلم أنَّك تستجيز مثل هذا في دينك، أما علمتَ أنَّ الرعية وديعةُ الله عند سلطانها، وأنَّ الله سائله عنها، وأنَّ أحداً من الرعية لا يقول قولاً إلَّا لظُلْم لَحِقه، أو لداهيةٍ نالته أو نالت صاحباً له؟ قم سَلْ عن القوم، فمن كان سيّء الحال فصِلْه من بيت المال، ومن كان مظلوماً فأزل ظُلامته، ومن أخرجه البَطَر إلى هذا فخوِّفْه، ففعل، فصلحت الأحوال.

انتهت سيرة المعتضد.

بدر المُعْتَضديّ

كان يخدم المعتضد والموفَّق، وأبوه من غلمان المتوكِّل، فرفعتْه السعادة.

---

(١) ذكر هذه الأبيات الذهبي في تاريخ الإسلام ٦/ ٦٨١، وفي السير ١٣/ ٤٧٨-٤٧٩، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٣/ ١٢٧-١٢٨، والسيوطي في تاريخ الخلفاء ٣٧٥.

(٢) بعدها في (ف م١): انتهت سيرة المعتضد والحمد لله وحده، السنة التسعون بعد المئتين.

(٣) الحاكي هو ابن الجوزي، والخبر في المنتظم ١٢/ ٣٢٥.

قال يحيى بن علي النَّديم: كنتُ واقفاً على رأس المعتضد وهو مُقَطِّب، فدخل بدر فأسفَر وجهُه لمّا رآه وضحك، ثمَّ قال لي: يا يحيى، من القائل: [من البسيط]

في وَجهه شافعٌ يمحو إساءتَه ... من القلوب وَجيهٌ حيثما شَفعا

فقلت: الحكم بن قنبر المازنيّ، فقال: أنشدْني تمامَه، فأنشدتُه:

كأنَّما الشمسُ من أعطافه لَمَعَتْ ... حُسْناً أو البَدرُ من أزراره طَلَعا

مُسْتَقْبَلٌ بالذي يَهوى وإن كَثُرتْ ... منه الذُّنوب ومَعذورٌ بما صَنَعا

وَيْلي على مَن أطارَ النَّومَ فامتنعا ... وزاد قلبي إلى أوجاعه وَجَعا[1]

وكان بدر جواداً مُمَدَّحاً سَخيًّا شجاعاً، وكان يؤثر القاسم بن عبيد الله ويتعصَّب له، فقال له المعتضد: والله لا قتله غيرُه، فكان كما قال.

وذلك أنَّ القاسم كان قد همَّ بتغيير الخلافة بعد المعتضد في غير ولده، فناظر بدراً في ذلك، فامتنع بدر وقال: ما كنتُ بالذي أصرف الأمر عن ولد مولاي الذي هو وليُّ نعمتي، فلمَّا رأى القاسم ذلك وعلم أنَّه لا سبيلَ إلى مخالفة بدر؛ إذ كان المستولي على أمر المعتضد، والمطاعَ في غلمانه وخدمه، اضْطَغَنها على بدر، وحدث على المعتضد الموت وبدرٌ بفارس ـ وكان زعيمَ الجيوش ـ فبايع القاسم المكتفي وهو بالرَّقَّة على ما ذكرنا، وقدم المكتفي بغداد، فعمل القاسم في هلاك بدر، فخاف أن يطَّلع المكتفي على ذلك فيكون سبباً لهلاكه.

وكان بين المكتفي وبدر تباعُدٌ في أيام المعتضد؛ لأنَّ بدراً كان حاكماً على الجيوش والخزائن، فأشار القاسم على المكتفي أن يكتب إلى بدر بأن يقيم مكانَه بفارس، ويبعثَ إليه المال له ولأصحابه، وأن يختار من الولايات ما شاء، ولا يقدمَ إلى الحضرة، وقال للمكتفي: أخاف عليك منه، فكتب إليه مع يانس الموفَّقي بذلك، وبعث معه بعشرة آلاف ألف درهم، فلمَّا وصل إلى بدر فكّر، وخاف لبُعده عن المكتفي من حيلةٍ تَنْفُذ من القاسم عليه، فكتب إلى المكتفي يقول: لابدَّ من المصير إلى الحضرة، وأن أشاهد مولاي، فقال له القاسم: قد جاهَرَك بالمعصية، ولا آمَنُه عليك.

(١) مروج الذهب ٨/ ٢٢٣، والبيت الأخير عندنا هو الأول فيه.

وكاتب القاسمُ القوَّاد الذين كانوا مع بدر بالمصير إلى باب الخليفة، فأوقفوا بدراً على الكتب، وقالوا: قم بنا حتَّى نجمعَ بينك وبين الخليفة لتأمنَ على نفسك، فقال: قد كتبتُ كتاباً إليه، وأنا منتظرٌ جوابَه، ففارقوه ووصلوا إلى بغداد.

وجاء بدر فنزل واسِطاً، فندب القاسمُ القاضي أبا خازم وقال له: اذهب إلى بدرٍ برسالةِ أمير المؤمنين، وأنَّه آمِنٌ على نفسه وماله، وأعطِه العهودَ والمواثيق، فامتنع أبو خازم ـ وكان ذا وَرَعٍ ودين ـ وقال: ما أؤدي عن الخليفة رسالةً لم أسمعْها منه، قال القاسم: أما تَقنعُ بقولي؟ قال: ما يكفيني قولُك في مثل هذا، فتركه، وندب القاضي أبا عمر محمد بن يوسف لذلك، فأجاب مُسرعاً، ولم ينظر كما نظر أبو خازم، وانحدر إلى واسط فاجتمع ببدر، وأعطاه العهود، والأيمان المُغَلَّظة، والأمان عن الخليفة.

فنزل بدر في طيَّار، وترك أصحابَه بواسط، وأمرهم أن يلحقوه، فبينما هو يسير إذ تلقاه لؤلؤ غلامُ القاسم ـ وقيل: بل هو غلامُ محمد بن هارون الذي قتل محمد بن زيد بطَبَرِستان ـ في جماعة من الخَزَر، فنقلوا [القاضي][1] إلى طيَّار آخر، وأصعدوا بدراً إلى جزيرة، فلمَّا علم أنَّهم قاتلوه قال: دعوني أصلِّي ركعتين وأوصي، فتركوه، فأوصى بعتق مماليكه وجواريه وصدقةِ ما يملك، وذبحوه في الركعة الثانية، وذلك في ليلة الجمعة السابعة والعشرين من شهر رمضان[2]، وألقَوا جسده في الجزيرة، وقدموا برأسه على المكتفي، فسجد وقال: الآن ذُقتُ لذَّةَ الخلافة، وحُمل رأس بدر إلى الخزانة.

وأكثر النَّاسُ ذمَّ القاضي محمد بن يوسف وقالوا: هو الذي غرَّ بدراً وأعطاه أماناً باطلاً، ومدحوا أبا خازم، وندم القاضي محمد حيث لا ينفعه النَّدم، وقالت النَّاس الأشعار؛ فمن ذلك: [من الخفيف]

قل لقاضي مدينةِ المنصورِ ... بمَ أحللْتَ أخذَ رأسِ الأميرِ
بعد إعطائه المواثيقَ والعهـ ... ـدَ وعَقْدِ الأمان في مَنْشورِ

(١) زيادة يقتضيها السياق. وهو الموافق لما في مروج الذهب ٨/ ٢١٧ ، وتاريخ الإسلام ٦/ ٦٦٥ .

(٢) في مروج الذهب ٨/ ٢١٨ ، وتاريخ الطبري ١٠/ ٩٢ ، والكامل ٦/ ٥١٨ : وذلك في يوم الجمعة قبل الزوال لست خلون من شهر رمضان.

أيـن أيـمـانُـكَ الـتـي شـهـد الـلـهُ عـلـى أنَّـهـا يـمـيـنُ فـجـورِ
أنَّ كـفَّـيـك لا تـفـارق كـفَّـيـ ـه إلـى أن يـرى مَـلـيـك الـسَّـريـرِ
يـا قـلـيـلَ الـحـيـاء يـا أكـذبَ الأمَّـةِ يـا شـاهـداً شـهـادةَ زُورِ
لـيس هـذا فـعـل الـقـضـاة ولا يُـحـ ـسـن أمـثـالَـه ولاةُ الـجـسـورِ
أيّ أمـرٍ ركـبـتَ فـي الـجـمـعـة الـغَـرَّاء مـن خـيـر شـهـر هـذي الـشُّـهـورِ
قـد مـضـى مَـن قـتـلـتَ فـي رمـضـان صـائـمـاً بـعـد سـجـدة الـتَّـعـفـيـرِ
يـا بـنـي يـوسـفَ بـن يـعـقـوبَ أضـحـى أهـلُ بـغـدادَ مـنـكـمُ فـي غـرورِ
بـدَّد الله شـمـلـكـمْ وأرانـي ذُلَّـكـم فـي أيـام هـذا الـوزيـرِ
فـأعِـدَّ الـجـواب لـلـحـاكـم الـعـا دل مـن بـعـدِ مُـنـكَـرٍ ونَـكـيـرِ
أنـتـم كـلُّـكـم فِـدًى لأبـي خـا زِمٍ الـمـسـتـقـيـمِ كـلّ الأمـورِ[1]

❁ ❁ ❁ ❁

(١) كذا في النسخ والمصادر، انظر الحاشية السابقة.